(١١)

بين العالم وجزيرة العرب

(بين العالم وجزيرة العرب تتردد مناجلية وتتجاوب همسات ، : « إن العالم يعتب على الجزيرة انطواءها وتخلفها عن تبعاتها الروحية ، ونسيانها لواجبها العظيم المرجو في الهداية والتذكير » ويطلب اليها ان تسارع لتجدته من ماديته الخرقاء وجحيم صراعه المستمر . فعندها البلسم والدواء وقد طال بها الصمت والانطواء . . .

والجزيرة تجيب العالم معترفة بأنها قصرت بعض التقصير . وتود لو نالت حظها من نهضة العالم الحديثة الكبرى ، ولكنها تخاف مادية العالم . وتخشى ان تعفى عليها بعد ان فتحت امامها الثغرات . وتناديه راجية ألا يرهقها بماديته فيجرفها التيار وهي الملقن الأخير للروح . وتنصحه بأن يسعد نفسه كما سعدت هي من قبل بروحها وهدى عقيدتها)

الشرباصي

من العالم

الى جزيرة العرب

فرصة سعيدة ياجزيرة العرب . لى معك اليوم حديث خطير قد خبأته لك من زمان وصرفنى عنه خطوب ونوائب شغلت خاطرى . إلا أن هذا الحديث قد ملك قلبى وثقل على نفسى فلم أر اليوم بدآ من أن أفضى به إليك ، وأتنفس مما أجده من الضيق والألم .

زهدنى فى هذا الحديث ما كنت أراه من انسحابك من الحياة وتنزلك عن القيادة التى تبوئتها زمنا غير يسير . وما كنت أراه من رغبتك فى العزلة عن العالم وما يقع فيه من حوادث ، وما يتجدد فيه من شئون . وكرهت أن أزعجك وأقلق بالك وقلت : لقد رقدت الجزيرة بعد سهر طويل سهرته فى مصالحى واستراحت بعد عناء كبير تحملته فى سبيلى فلا ينبغى لى أن أوقظها وأنغص مضجعها ولكن الخطب كان أجل من ذلك وأعظم ، ولم أر مفزعا بعد الله إلا إليك وقلت : لقد وجدت فى هذه الجزيرة غوثا ونجدة قبل ثلاثة عشر قرنا ، وقد أحوج بى يومئذ ، فعسى أن أجد فيها فرجا وروحا مرة ثانيه .

أراك أيتها الجزيرة العزيزة تنظرين إلى نفسى نظرة الحياء ، وتلقين على نفسك نظرة الازدراء . تنظرين إلى تقدمى فى الصناعة والاختراع وإلى تسخير الإنسان للبخار والكهرباء ، وتسخير الطاقة الذرية فى الزمن الأخير . وتقولين فى شىء من الخجل والاعتراف وفى شىء من الجراءة والشجاعة . لقد تقدم العالم بعد ما خرج من حضانتى تقدما مطردا وقطع أشواطا بعيدة فى العلم والمدنية هونى عليك أيتها الجزيرة فإن هذا الانسان الطائر فى الهواء العابث بأمواج الأثير لا يزال طفلا صغيرا فى أخلاقه وفى شعوره الاجتماعى وفى عناده وقصور نظره وأثرته ، وإيثاره الصور والاشكال على الحقائق والمعانى ، وافتتانه بالمهازل والملاهى . فلو علمت أيتها الجزيرة ما وراء الأكمة لهان عليك الخطب وعلمت أن الانسانية لا تزال حيث خلفتها ، وأن الانسان وإن أصبح يطير فى الهواء كالطير ويسبح فى البحار كالسمك فإنه لا يحسن أن يمشى على الأرض كإنسان .

أراك أيتها الجزيرة تنظرين بدهشة واستغراب إلى معاهدى العامرة وإلى مكتباتى الزاخرة ومطابعى المتدفقة وحركة التأليف والنشر القوية. وإلى هذا الأدب الخصيب الذى يطلع كل يوم بشىء جديد. ولكن لاتعجلى. إن روح هذه الحركة التجارة والاستغلال، وان كثيرا من حملة الأقلام يتاجرون بأخلاق الناس وضمائرهم، ويحبون ان تشيع الفاحشة فى المجتمع وتروج بضاعة الخلاعة والاستهتار، ولاتستغربى إذا حدثتك ان كبار المثقفين والأدباء عندى لا يفضلون فى الأخلاق والصبر على مكاره الحياة والعزوف على الشهوات وإنكار الذات على الأعراب الذين يضرب بهم المثل فى الجفاء والجهل والأمية.

أراك أيتها الجزيرة تصغين إلى الكلمات الرنانة التى تتلوكها ألسنة السياسيين وترددها اقلام الصحفيين كالعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والجمهورية كأنك تسمعين كلمات لها معنى وتطبيق فى الحياة كما حدثت العالم من قبل بكلمات صادقة يوم كان اللفظ دليلا على معنى ويوم كان الانسان يرى نفسه مأخوذا بقوله.. هيهات لقد تقدم الزمان واصبح كثير من الكلمات لايقصد بها معنى ولا تراد بها حقيقة. فرحم الله من اعتمد على الكلمات ورحم الله من صدق اهلها فى مايقولون

اراك ايتها الجزيرة تنظرين إلى فتغبطيننى على ما تعتقدين عندى من صفاء وسرور وراحة ونعيم وهدوء وسلام لقد استسمنت باهذه ذاورم. انا جسم قد علتنى اورام غير طبيعية فظننى الجاهل صحيحا سليما مع انى مريض دنف اشكو فى كل عضو من اعضائى اوجاعا واوصابا اشكو فى قلبى وجعا وفى راسى صداعا وفى عينى رمداً. وفى دمى نزفا وفى نفسى اختلالا. تارة اصاب بطوى وجوع تكاد تزهق له نفسى واخرى ببطنة وتخمة تكاد تقضى على وتقتلنى. وقد اجتمع حولى متطببون ومشعوذون يعالجوننى بالأمراض ويداوون الداء بالداء وبعمليات جراحية خرقاء. لقد قتلونى قتلهم الله. عالجوا شاكل الاقتصاد بحركة منع الولادة.. وسوء التصرف فى المال بتحريم الملك الشخصى.. واستبداد الأشخاص باستبداد الأحزاب واحتكار الأفراد باحتكار الشركات.. والرأسمالية الجائرة بالاشتراكية المرهقة والاشتراكية العمياء بالجمهورية الزوراء، لقد داووا جورا بجور وظلما بظلم وإسرافا بإسراف وجهلا بجهل وعلة بعلة فزادونى مرضا على مرض وضعفا على ضعف..

اليك جئت ايتها الجزيرة العربية بمـــا معى من ادواء وأوجاع وقد فضحت امامك نفسى وكشفت سرى فهل تغيثينى كما اغثتنى من الأحر . فلست اليوم بأقل حاجة إلى إسعافك وإنجادك من يوم بعث رسولك واشرق على نورك !!

لا تغرنك ايتها الجزيرة منى مظاهر المدنية الجوفاء وهذه الطائرات المحلقة فى الهواء وهذه الناطحات للسماء وهذه الآلات التى ملأ صوتها الفضاء . فيسهل على ان اتخلى من كل هذا ومن كل كنوزى واتنازل عن كل ماتنظرين اليه نظر الغبطة واستبدل بها ما فقدته من الايمان الذى جاءت به الأنبياء والرسل . والذى فقدت معه قوتى وحرارتى وشخصيتى وروحى واصبحت جسدا ميتا قد يطفو على الماء وقد يحمله الهواء .

نفسى فداؤك يا جزيرة العرب خذى منى ماشئت من سيارات وقطر وطائرات وما كينات وآلات وزخارف وادوات وتصدقى على بهذا الايمان الذى لا اجده فى اسواقى ولا تنتجه مصانعى على كثرة ماتنتج وعلى غرابة ما يخرج منها ولم اكتسبه من مكتبتى الواسعة ، ولا يفيدنى إياه فـــلاسفتى ومفكرى وكتابى وزعمائى إنما أفاده العالم « أمى » لا يزال فى احضانك ، فعاش هذا العالم بعد ما كان ميتا وابصر بعد ما كان اعمى ، وتماسك بعد ما كان متزعزعا ولم يصب احدا شىء من هذا الايمان إلا عن طريق هذا النبى الامى ولن يصيب احداً إلى خر الابد إلا عن طريقه ، لذلك جئتك سائلا فلا تنهرينى ولا تردينى خائبا !

انا أيتها الجزيرة حائر تائه قد تكدست عندى آلات وادوات ووسائل ماعرفت كيف اصنع بها وكيف استعملها فإنى إلى الان لم اعرف ما غاية هذه الحياة وما نهايتها ومن خالق هذا الكون ولأى شىء خلقه وما مركز هذا العالم وما روح هذه الحياة ! . وما هذه الآلات والمصنوعات بل ماهذه القوى المودعة فى هذا الكون وهذه الخيرات المنبثة على الأرض إلا كسرا من كسور هذا العالم الكبير فمن كان حائراً تائها فى هذا المجموع الكبير كان خليقا بأن يكون حائراتائها فى كسوره خابطا فى استعمالها قد يستعملها فى خير وقد يستعملها فى شر ، وطالما يستعملها بلاغاية . والغايات لاطريق الى معرفتها الاالانبياء والمرسلين اما المكتشفون والصناع فانما موضوعهم الآلات والصناعات ولما تفردت بالوحى تفردت بالغايات

ولما عنيت بالصناعة والاكتشاف تفردت بالآلات والمصنوعات وبانفصالها شقيت الانسانية فهلمى يا مهد الايمان ويا مهبط الوحى تتعاون على سعادة الانسانية وصالحها فانجدى العلم والصناعة بالغايات والروح والايمان. وأنجدى الدين بالآلات والوسائل حتى تسير الانسانية رشيـــدة الغاية سديدة الخطى على جناح السرعة والقوة فيك تستفيد صلاح الغاية وصحتها وبى تستفيد سرعه الوصـول الى هذه الغاية الرشيـــدة .

جودى على أيتها الجزيرة بنفحة من نفحات محمـــد ﷺ أحل بها مشاكل الحياتى وألغاز مجتمعى ، وأحيي موات قلبي وأطفىء بها جحيم المادة التى أحاطت نيرانها بهذه المدنية وبكل فضيلة إنسانية ،وقد هبت نفحة منك فى القرن الاسلامى الأول فحولت هذا العالم الفسيح من جحيم إلى نعيم ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله نبيه . فعودى على هذا العصر بنفحة جـــديدة تنفخ فيه روحاً جديدة وتبعث هذا العالم بعثا جديداً !

إنك تجودين على أيتها الجزيرة العربية بمقـــدار عظيم من البترول أدير به ماكيناتى وأسير به عجلاتى فأنا أدين لك بالفضل وأشكر صنيعك ولكنى كنت أنتظر منك — أيتها الجزيرة السعيدة يامولد نبى الرحمة — شيئا أعز وأثمن من الذهب الأسود . كنت أنتظر منك أن تخرجى لى عجلة الحياة التى غاصت فى الوحل وأن توجيهها التوجيه الصحيح وان تخلصى ركابها من هذا المأزق فقد عجزت حكمة الحكماء وصناعة الصناع من إخراجها فاخرجيها بما معك من حكمة النبوة وبقية قوة الرسالة والايمان واليقين وسيريها بنور الشريعة الالهيـــة والهداية الاسلامية !

وفى الأخير أقول إنك يا جزيرة العرب قطعة منى يصيبك خيرى وشرى ويصيبك لفحى ونفحى .. مايمكنك أن تعيشى منعزلة عنى فإن أدركتنى وأصلحت شئونى فإلى نفسك أحسنت ، أولا ، فعليك وعلى أهلك جنيت .

من الجزيرة العربية الى العالم

مساء الخير أيها العالم . لقد سمعت كلمتك الرقيقة التى تنم عن إخلاص وصدق وحب وقد خاطبت يوم خاطبنى جزءاً منك وعضواً حيا من أعضائك يشعر بشعورك ويتألم بألمك ويشاركك فى السراء والضراء وفى الشدة والرخاء .

لقد ذكرتنى بذكرك القيادة العالمية عهدا كلما تذكرته تحركت أحزانى وهاجت شجونى ، لقد كنت كما تعرف جزيرة منعزلة عن العالم لا أسترعى نظراً ولا أشغل بالا ولا ترفع برجالى رأساً ولا تعبرهم شيئا من العناية ، يقول رجالك المتمدنون إذا سئلوا عنهم : أعراب من جـزيرة العرب رعاة أبل وسكان وبر وأصحاب فصاحة لا يعرفون الحضارة والمدنية والعلوم بينما بلغت المدنية أوجها فى بلادك الرومية والفارسية وبينما كنت تزخر بالبضائع والابنية الشامخة والعلوم والحرف .

ولكن — من غير مؤاخذة — لقد انطفأت شعلة الحياة فى جسمك وفقدت حرارتك الغرزية وقد ضاعت رسالة الأنبياء فى ترف الأغنياء وبؤس الفقراء وجور الأمراء ومطالب الحياة وتكاليفها التى لم تترك فراغا فى القلب ، وسعة فى الوقت ، وبقية فى الصبر ، حتى اصبحت لا يوجد فى إقليم واسع منك من يفكر فى الآخرة ويهتم بدينه وغاية حياته وقلما يوجد فى قطر من يعبد ربه .

وقد كنت من غير تواضع مصابا بأدواء خلقية واجتماعية ودينية وبما تزرى بأدوائك وعيوبك الاجتماعية ولكن كانت لا تزال فى جمرة من الحياة ، صبر على المكاره ، وثبات على المبدأ واستماتة فى سبيل العقيدة ، واستهانة بالحياة والمادة ، وبساطة المعيشة إلى غير ذلك مما يليق بأمة نيط بها جهاد طويل عريض .

نظر الله إليك وهو العليم الخبير فرأى ما يرضى السياحين ويسر المتفرجين من زهو المدنية ولا يرضى الذى خلق العالم لغاية وخلق الخلق لعبادته ونظر إلى امم الأرض فعمد إلى احطها معيشة واخملها ذكراً واقواها على حمل الأمانة فاختارها لرسالته وابتعثها إلى هذا العالم المنهار .

ارسل إلى رسولا ولدته أم القرى وعاش فى احضانى بين سمعى وبصرى

فإذا هو قرة عين الانسانية وجمال الدنيا وعلى جبل من جبالى فى يوم لم أعرف خطره اكرمه بالرسالة وبعثه إلى ليكون للعالمين نذيرا . واختار له رجالا انجبتهم ولكن لم الق لهم بالا ولم احسب لهم حسابا ولكنهم اثبتوا قيمتهم وكفايتهم أمر الناس قلوبا واعمقهم علما واقلهم تكلفا واعلاهم همة ، واثبتهم جنانا واقواهم إيمانا بالهم من عباد ليل وإحلاس خيل .

هنالك نهضت بروح غير الروح وبقوة غير القوة هى روح الرسالة وهى قوة الايمان وفاجئتك بحماسة وسرعة لاعهد لك بهما فإنه لاعهد لك من قديم الزمان بالايمان وقوته فنظرت إلى شزراً وظننتنى من الغزاة الطامعين والملوك الطامحين وظننت انى خرجت لمصلحتى ودافعى الجوع والفقر وقله الموارد فعرضت على مايشبع جوعة الزاحفين ويرعى الملوك الطامعين فإذا الأمر بالضد وليس الدافع إلا الشفقة عليك والحرص على إنقاذك من داهية الوثنية وشرور المدنية فوقفت فى سبيلى من غير جدوى وقاومتنى من غير نتيجة فلم تزل قوتك المادية تتحلل وتذوب امام حرارة الايمان وقوة الروح حتى وضعت اوزارك واستسلمت للقضاء الواقع ولما زالت عنك دهشة الفتح اقبلت على رسالتى تدرسها وتتفهمها فاذا هى اساس المدنية ومعراج الانسانية ، فأمنت بها بلاد ودانت بها امم فأحلت لها الطيبات وحرمت عليها الخبائث ووضعت عنها إصرها والأغلال التى كانت ومنحتها الامامة فى العلم والدين والسيادة فى الحكم والسياسة .

وهنالك ـ لا اخفى عنك ـ وقعت كارثتى بل كارثة العالم ، فقد الهتنى هذه الفتوح الواسعة والغنائم الزاخرة ، والكنوز العظيمة والمدنية الباهرة التى لم يكن لى بها عهد فأطفأت شعلتى واخمدت حماستى وبردت روحى ، وابتاعت إيمانى ووقع لرجالى ما اخبر به نبيهم ﷺ « لا الفقر اخشى عليكم ولكن اخاف ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » فأصبح رجالى غير الرجال اجسام كأجسامهم الاولى بل هى اروع وملابس كملابسهم السابقة بل هى اخر ، ووجوه كوجوههم بل هى اشد نضارة وطراوة ولكن ارواح باردة ونفوس خامدة وقلوب خاوية (إذا رايتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة)

هنالك اعترانى كسل وفتور وإعياء ورأيت الاعتزال عن معترك الحياة فإنى لا أطيقه فرجعت أدراجى وأنطويت على نفسى . لقد كان اعتزالى عن الحياة رزيئة إنسانية عامة وكارثة عالمية عظمى ، فقد بقيت الامم قطعانا من الغنم لاراعى لها وبقيت القافلة وقد جد بها السير وغاب عنها الخريت .

هنالك خطبت الامم فى مدنيتها وعلومها وصنائعها وسياستها وهنا كانت مصيبتك فقد اكتشف لك المكتشفون وعلماء الطبيعة القوى الهائلة والوسائل الجبارة وسخروا لك البلاد والكهرباء والماء والهواء وكرسوا لك العلوم والحكم ولكن استخفوا بالروح وهزأوا بالإيمان وأهملوا تربية الأخلاق فأصبح تقدمك معوجا وجاءت نهضتك الأخيرة نهضة هوجاء خرقاء وكنت كشجرة برية تمتد فروعها وتطول على غير نظام وعلى غير نسق فهذا ذاهب إلى اليمين وذلك إلى الشمال وهذا وجد متسعا فطال وهذا تضايق فقصر أو كولد إنسان ينشأ فى مغارة دب أو حجر ذئب يجمع بين حدة الأظفار وقوة الساعد . وشراسة الأخلاق وصغر العقل .

لأجل ذلك وقع ماتشكو منه من تضخم الآلات واضمحلال الغايات وسوء التصرف فى القوة والخبط فى العلم وفساد أخلاق المثقفين ونهامة الأدباء والمؤلفين وكذب الصحفيين وتزوير الزعماء والسياسيين وخرق الأطباء والمعالجين وماتشكو منه من علة الروح واضطراب للقلب وانزعاج النفس فإن هذا كله — سامحنى أيها العالم — من لوازم حضارتك وعقليتك التى خلعت ربقة الدين واستغنت عن هم الانبياء والمرسلين وأسست حياتها على القياس والتخمين وعبادة المادة والقوة والشهوات .

ولو رأى أحد حضارتك فى تكوينها لتنبأ بمثل هذه النتائج واندر منها كما يرى الانسان بذرة فيتنبأ بثمرتها . لقد سرتنى شجاعتك أيها العالم باعترافك بالافلاس فى الإيمان وأن مصانعك لاتنتجه وإنه لايوجد فى اسواقك ولا عند علمائك وان مصدره هو الرسول الأعظم الذى يستنكف من اتباعه فلاسفتك وحكماؤك وأكثر منهم قادتك وزعماؤك فلا تستحى أيها العالم المتنور واحرص

على هذا الإيمان وكن جاداً فى طلبـــه مهما كلفك من التواضع والتعب فإنك بدونه جسد بلا روح وبيت بلا نور .

لاتعرض على مصنوعاتك من سيارات وزخارف وأدوات فقد أخذت منها الكفاية وفوق الكفاية بل أريد أن أشكو إليك أن سياراتك قطعت نسل خيلى العتاق التى كان يضرب بها المثل فى الخفة والأمانة والوفاء والغنـــاء فى الحرب وقد أغرقتى زخارفك ومصنوعاتك بالبذخ والتبذير والراحة والكسل والاتكال على الآلات فضعفت الاجسام ووهنت القوى وتعطلت أيد عاملة وانصبت دماء أجسامنا أجسام غيرنا فاسترد منى فضول مدنيتك لعـــلى أستعيد بعض قوتى ونشاطى وأخلاقى التى كنت فيها مضرب المثل .

لقد أعيتك أيها العالم معضلات مدنيتك والغاز مجتمعك وإنها لتتحدى تشريع المشرعين وجهود المصلحين فتعجزها فاطرح عنك أيها العالم الكبر والحياء وأقبل على هذا الكتاب الخالدالذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم واستفته وأرجع اليه فى ماينوبك من الجيرة والعجز وادوسه ككتاب لاعهد لك به من قبل وقد نزل اليوم ليرشدك ويأخذ بيدك وانظر كيف يحل لك عقدة بعد عقـــدة ومعضلة بعد معضلة من حياة الفرد إلى حياة المجتمع وفى السياسة والاقتصاد وفى المدنية والاخلاق ويمنحك مبادىء ودعائم تؤسس عليها المدنية الصالحة وتجمع بها بين سعادة الدنيا والاخرة إن هذا الكتاب المعجز يخاطب اليوم فلاسفتك وزعماءك بما خاطب به رجال القرن السادس المسيحى (لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

غلبتك المادة أيها العالم فجئتنى لا ترغب إلا فى ما احتوى عليه من كنوز الثروة والقوة ولا يهمك إلا مايجرى فى بطنى من عيون البترول فأعطيت سؤلك واشبعت نهمتك وإنما يعطى السائل على قدر همته وقد جئتنى اليوم تسأل أعز ماعندى وأنفع للانسانية تسألنى الارشاد والتوجيه فأهلا بك وسهلا أيها الزائر الكريم ودونك المنهل العذب الصافى من الدين السماوى ومن الوحى المحمدى

الذى اختفظت به طول هذه المدة فارتو منه ماشئت واستق منه الايمان واليقين ومبادى الحياة السعيدة والعلم الصحيح والعمل الصالح والخلق المستقيم والاتجاه الصحيح فى كل عمل وحركة وفى كل دقيقه وجليلة ذلك الاتجاه الذى لا يكون إلا بالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر والحساب والعقاب ، تشرب هذه المبادى من هذا المعين الصافى واستمد منه الحيـــاة والقوة والشباب والرسالة واطلع عالما فتيا مشرقا يخلف العالم الشائب المظلم العليل الذى قد فقد الروح والحياة والشباب وأصبح لايحمل رسالة للانسانية .